الأزهر والحملة الفرنسية على مصر
(١٢١٣ - ١٢١٦هـ/ ١٧٩٨ - ١٨٠١م)

يقول نابليون بونابرت فى مذكراته التى أملاها فى منفاه بجزيرة سانت هيلانة إن الأزهر يقابل جامعة السوربون، وإنه أشهر جامعة فى الشرق، ويفصح عن البواعث التى أملت عليه التقرب إلى المشايخ علماء الأزهر، فيقول إنهم زعماء الشعب المصرى، وإنهم ظفروا بثقة ومودة سكان مصر عن بكرة أبيهم، وإنه فى حكم الاستحالة أن يتطلع الفرنسيون إلى ممارسة نفوذ سريع على المصريين لأنهم أغراب عليهم، ومن ثم كانت الحاجة ماسة إلى وسطاء، ويقول: «وقد فضلت العلماء ودكاترة الشريعة لأنهم أولا، هم كذلك بطبيعة الحال، وثانيًا لأنهم هم مفسرو القرآن، وإن أكبر العقبات التى واجهتنا وسوف تواجهنا أيضا إنما تنبثق عن الأفكار الدينية، وثالثا: «لأن هؤلاء العلماء ذوو طباع هادئة، ويحبون العدالة، وعلى درجة من الثراء، وأصحاب مبادئ خلقية عالية، وهم بدون منازع أكثر الناس أمانة فى مصر، ولا يركبون الخيل، ولا يمارسون أعمالا عسكرية، ولا ينتظر منهم تزعم حركة مسلحة».

كما قال إنهم طاعنون فى السن وإن علمهم وعراقة أصولهم وكرم محتدهم، كل أولئك يحمل المرء على إبداء مزيد من الاحترام نحوهم.

وتطبيقًا لهذا فإنه عندما أنشأ الديوان الذى «سيحكم القاهرة» كما جاء فى البند الأول من قرار إنشائه، كونه من تسعة أعضاء كلهم من المشايخ علماء الأزهر، يختارون رئيسهم، وأمينًا (كاتمًا للسر) من غيرهم. واستبقى للعلماء امتيازاتهم، وعلى رأسها حصصهم فى نظام الالتزام، وتنظرهم على الأوقاف.

وأمـر بأن يؤدى حرس الشـرف المرابطون بإزاء القيادة العامة الفرنسـية فى الأزبكية التحية العسـكرية بالسـلاح لهم إذا قدموا القيادة. فإذا دخلوا المقر خف لاسـتقبالهم رجـال الياوران والمترجمون، يرحبون بهـم ويقودونهم إلى الصالون الرئيسـى، وتقدم لهم المرطبات ثم القهوة، ثم يدخل عليهم نابليون فيرحـب بهم. وكان يناقشـهم فـى القرآن الكريم وفى تفسـير بعض آياته، ويحرص على إظهار الاحترام الشديد للنبى. وكان المسلمون والمسيحيون على السـواء يلتمسون عندهم الحماية. وكان نابليون يهتم بالأعياد الدينية كالمولد النبوى والمولد الحسينى، ويحضرها بنفسه فى احتفاء شديد بها.

لكـن على الرغـم من كل هذا اندلعت ثورة عارمة فـى القاهرة فى أكتوبر ١٧٩٨، قبل أن تنقضى شهور ثلاثة منذ دخل الفرنسيون مصر بزعامة الشيخ محمد السـادات، لها مجلس ثورة مقره الجامع الأزهر، ومن مآذن المسـاجد دعا المؤذنون المسلمين إلى الحفاظ على دينهم بالقيام على الفرنسيين، فكانت الصلاة تختلط مع الدعوة إلى الثورة.

وكانت هناك أسـباب للثورة: أولها أن الشـعب المصرى كان يمثل مجتمعا إسـلاميًا متزمتًا ينظر إلى الدولة العثمانية على رغم كل شـىء! باعتبارها دولة الإسلام الكبرى، سلطانها هو سلطان المسلمين. وأكد هذا الإحساس أنها اشتبكت فى حروب ضارية شنتها عليها الدول الأوروبية على امتداد القرن الثامن عشر، وانتصرت فيها على النمسـا وروسيا، كل أولئك جعل أفئدة المصريين تهوى إلى الدولة العثمانية. ثم إن بونابرت حاكم عسـكرى مسـيحى أجنبى استولى على بلادهم، وما برحت رواسـب الحروب الصليبية عالقـة بالذاكرة، تحجب أية إيجابيـات لأوروبـا. زد على هذا لم تكن هناك أية صـلات علمية- عن طريق المبعوثـين مثلًا- ثقافية أو اجتماعية أو اقتصادية بين مصر وأوروبا، فمسـتوى

المعيشة كان متدنيا فى مصر، والاقتصاد كان محليًا، ووسائل النقل بدائية لسفن تصنع من الأخشاب، وتعتمد على الأشرعة، والسفر بهذه الكيفية محفوف بالمخاطر، وثقافة المصريين دينية بحتة بعيدة كل البعد عن ثقافة فرنسا.

ويعترف نابليون بأهمية الاختلاف الدينى، ويستشهد بآراء الرحالة فولنى الفرنسى بعد زيارته للشام ومصر. ويقول: إن المصريين لم يذعنوا إلا أمام القوة المادية، ولكنهم كمسلمين لا يخفون حسرتهم من انتصار غير المؤمنين عليهم، فدنس وجودهم مياه النيل، وكانوا يعتبرون من العار أن تسقط مصر التى تقع فى الطريق المؤدية إلى مكة والمدينة فى أيدى الفرنسيين.

وأضاف أن أئمة المساجد كانوا يتخيرون الآيات التى تحض على جهاد الكفار، وأنه كان من الصعب على الجيش الفرنسى أن يصمد فى حرب دينية.

لقد كان هناك اختلاف فى اللغة والزى والثقافة بشكل عام، فلقد عاشت العمامة ردحًا طويلًا من الزمن شعارًا للإسلام، ورمزًا للفضيلة، بينما كانت القبعة مرتبطة بلويس التاسع وذكريات الحروب الصليبية الكريهة.

وكان هناك منشور السلطان العثمانى يصف الفرنسيين بالكفار المنكرين لوجود الله، وأنهم لم يحضروا إلى مصر بالاتفاق معه، نقيض ما قاله نابليون بأن الفرنسيين «مسلمون مخلصون»!

ووصفه للسلطان بـ «محبنا دام بقاؤه!». ودعا المصريين إلى الجهاد فى حرب مقدسة، ووعدهم بقوات تشد أزرهم. وفى ذات الوقت كان أحمد باشا الجزار يبلغ المصريين بأن السلطان قد عينه واليًا على مصر ويدعوهم إلى «القيام ضد الكفار»، وأنه سيزحف بقوات هائلة لطردهم. وكان إبراهيم بك هو الآخر يدعوهم للثورة عن طريق منشوراته إلى علماء الأزهر.

وكانت هناك معركة أبى قير البحرية التى تحطم فيها الأسطول الفرنسى، وكانت هناك ثورة المنصورة ودمياط وتكبيدهم الفرنسيين خسائر فادحة. وكانت هناك المسألة النسائية فقد اصطحب بعض الضباط الفرنسيين زوجاتهم أو عشيقاتهم، وكن نحو ٣٠٠ امرأة، فعشن فى مصر متحررات من كل قيد، ويتجولن فى القاهرة بأزيائهن التى ينكرها المصريون، ويداعبن العامة وهن راكبات الحمير، ويراقصن العامة فى الاحتفال بذكرى الجمهورية فى الأزبكية. إلى جانب خروج سيدات شركسيات ويونانيات وأرمينيات وإماء سود إلى حياة التحرر، شجعهن عليها الجو الاجتماعى الجديد، وقدم الفرنسيون لهن الملابس الأوروبية والجياد فركبنها، وكان هناك زواج الفرنسيين من مصريات مسلمات، بعد أن ينطق الفرنسى بالشهادتين، والذى اعتبره المصريون ضربا من الرذيلة، ويعلق الجبرتى: «ينطق بالشهادتين لأنه ليس له عقيدة يخشى فسادها»!!. وكانت هناك العلاقات غير الشرعية بين الفرنسيين وعدد من النسوة الأوربيات، نتيجة قلة عدد السيدات الأوروبيات فى مصر. وتعذرت إجابة طلب نابليون بأن ترسل فرنسا زوجات جميع رجال الحملة، وأعدادًا وفيرة من السيدات الفرنسيات بسبب الحصار الإنجليزى للشواطئ المصرية بعد معركة أبى قير البحرية. وحوِّل بعض البيوت إلى أماكن عامة للمجون، ونيط إلى جدرانها لافتات بالفرنسية، وقدمت الخمر لروادها، وهيأت رقص المخاصرة مع السيدات لمرتاديها. وأنشئت مشارب البيرة، وافتتحت محال عديدة للدعارة، وأقبل الفرنسيون عليها إقبالًا شديدًا.

ومن التصرفات التى جانب التوفيق فيها الفرنسيون تعيين يونانى شرس من العتاة فى منصب وكيل محافظة القاهرة- بلغة زماننا هذا- يسمى «برتلمى»، وكانت العامة تسميه «فرط الرمان»، يقول الجبرتى عنه إنه من

سفلة اليونانيين. وكان يخرج أحيانًا إلى أطراف القاهرة وحوله وأمامه قوة تبلغ المائة من اليونانيين غلاظ القلوب، بحجة البحث عن الفارين أو البدو المتمردين، فإن لم يصادف أحدًا من هؤلاء أو أولئك قتل من صادفهم من الفلاحين فى طريق عودته إلى القاهرة!! يقول أحد المؤرخين الفرنسيين إن كل الآثام التى نسبت إلى الفرنسيين إنما تتجسد فى هذا الرجل اليونانى.

كما أثار ثائرة المصريين إعدام السيد محمد كريم حاكم الإسكندرية رميا بالرصاص فى الرميلة بالقاهرة فى ٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨م، وقطع الفرنسيون رأسه، ورفعوها على نبوت، وطافوا بها فى القاهرة، والمنادى ينادى: «هذا جزاء من يخالف الفرنسيس».

وأسرف نابليون فى فرض القروض الإجبارية على التجار والصناع ومن إليهم، ثم عمد إلى مصادرة الممتلكات، وابتزاز الأموال من نساء البكوات المماليك، فى الوقت الذى كانت البلاد تعانى فيه الكساد بسبب توقف قدوم القوافل التجارية من شمالى إفريقية والسودان، وتعطل التجارة الخارجية البحرية استيرادًا وتصديرًا.

وكان نابليون قد عهد إلى اقتصادى فرنسى تدبير موارد للمالية المصرية، ففرض ضرائب جديدة على التركات والعقارات والهبات والمبايعات والإشهارات، والسفر من مكان إلى آخر وعلى تسجيل المواليد. ولكى يضفى شرعية على هذه الإجراءات جمع فى العاصمة مجلساً سماه «الديوان العمومى»، واستصدر موافقة الديوان عليها.

تكونت لجنة من علماء الجامع الأزهر وأئمة المساجد وبعض المغاربة للإعداد للثورة برئاسة الشيخ محمد السادات كما ذكرنا، وكان عضوا بـ «الديوان» الذى أنشأه نابليون ليحكم القاهرة. أما باقى أعضاء اللجنة فلم

يكـن أحدهم عضوا بالديوان. ولجأ «مجلس الثـوار»- كما سماه نابليون- أو «ديـوان المتمردين»- كما سماه أحيانًا أخرى إلى تعبئة الشـعور الدينى ضد الفرنسـيين، كما لجأ المجلس إلى حرب الشـائعات، مثـل أن نابليون قرر تنصير جميع مسـلمى القاهرة! وأن مراد بك دحر الفرنسـيس على أعقابهم إلى الجيزة، وأن الجزار باشا عين قائدًا للجيش الزاحف من الشام إلى مصر، وأنه قد وصل مع إبراهيم بك إلى بلبيس، وأن جيشًا عثمانيًا آخر سيصل إلى الشـواطئ المصرية، وأن الفرنسـيس قد انهاروا بعد موقعة أبى قير البحرية، وأنهم يسـتعدون للفرار، ولهذا هدموا أبواب الأزقة اسـتعدادًا لنهب البيوت عند رحيلهم. كما لجأ المجلس إلى تشـويه سمعـه أعضاء الديوان، وصورهم بمظهر الخونة المارقين، حتى لا يسـتمع الشعب إليهم إن نصحوه بالإخلاد إلى السكينة.

وتـولى المجلس توزيع العمل على الثوار، وأخرج الأسـلحة من مخابئها. ورد الفرنسيون على الشائعات بمنشور يقول بأن وصول أحمد باشا الجزار إلى بلبيس من نسج الخيال، أما نزع البوابات فهذا يخضع للوائح الشرطة، وأما تسليح القلعة فليس سوى استكمال لمنشآت عسكرية. ثم هددوا سكان القاهرة بتذكيرهـم بما حل بالمماليك فى معركـة إمبابة. يقول نابليون إن نتيجة هذا المنشـور كانت سـلبية، لأن دعاة الثورة استغلوه دليلًا على خوف الفرنسيين وانكسار شوكتهم، فازدادت ثقة المصريين، وازداد استخفافهم بالفرنسيس.

وفـى الصباح الباكر من يـوم الأحد ٢١ أكتوبر سـنة ١٧٩٨ انطلق علماء الأزهر وطلابه فى شـوارع منطقة الأزهر يتنادون إلى الثورة، ويلهبون مشـاعر الأهلين بخطبهم الحماسـية، وغدت منطقة الأزهر تموج بحشـود شعبية من الثوار حاملين البنادق والرماح والسـيوف والخناجر والنبابيت. وعلم الجنرال

ديبوى الحاكم العسكرى لمنطقة القاهرة بأنباء الحشود الشعبية. فأصدر الأوامر للقوات فى بركة الفيل برفع الاستعدادات إلى الدرجة القصوى، وتحرك على رأس كتيبة من الفرسان متجهًا إلى الموسكى، فأحاط به الثوار فى تلك الشوارع الضيقة وأمطروه وفرسانه بالحجارة. وانشقت الأرض عن برتلمى أو فرط الرمان، وأطلق عيارًا ناريًا قتل أحد الثوار، فازداد هياجهم، وطعن أحدهم الجنرال ديبوى بالرمح فى ثديه الأيسر، فقتله. وازدادت حماستهم فقتلوا عددًا كبيرًا من كتيبة الجنرال. وانطلقوا إلى دار قائد سلاح المهندسين، وكانوا يكرهونه كرهًا شديدًا، لأنه الذى باشر هدم بعض المساجد والمقابر، وانتزع أبواب الحارات، لكنه كان بصحبة نابليون فى جزيرة الروضة، ووجدوا خمسة أو ستة من العلماء فى داره، فقتلوهم، وعلقوا رؤوسهم على باب الجامع الأزهر، وحطموا الأجهزة العلمية التى وجدوها بالدار. وأسرعت قوة فرنسية فحاصرت الدار وأطلقت النار على من وجدته فيها من المسلمين، كما يقول الجبرتى.

وكان عدد من الجنود الفرنسيين يسيرون فى شوارع القاهرة عزلًا من السلاح، عادتهم، وفوجئوا بالثورة، وقتل الثوار عددًا كبيرًا منهم.

وكان بعض الفرنسيين قد أقام مطاعم ومقاهى وملاهى فى أطراف القاهرة، فقتلهم الثوار ونهبوا ممتلكاتهم. وسيطر الثوار على كل القاهرة خلا ميدان الأزبكية وبركة الفيل وقلعة الجبل، حيث كان معظم القوات الفرنسية.

وأرسل الجنرال جونو رسولا يخبر بونابرت بالثورة، فعاد مسرعًا من ناحية بولاق، إذ أمطره الثوار وابلًا من الحجارة حين حاول الدخول من مصر القديمة. وعلم أن الأزهر مقر الثورة وأن به خمسة عشر ألف ثائر وأن الثوار قد أقاموا المتاريس والحواجز فى الطرقات والأزقة حول الجامع، وعين الجنرال

دومارتا خلفًا للجنرال ديبوى، وأمر بنصب المدافع على جبل المقطم، وتعزيز مدفعية القلعة مسلطة على الأزهر.

وأرسل الثوار إلى المواطنين فى سائر البلاد يستنهضونهم للدفاع عن حرمة الدين، فلبوا النداء، وحضروا مسلحين بالبنادق والرماح والسيوف والعصى، وكانوا مازالوا يسيطرون على بوابات القاهرة، ففتحوها لهم. لكن القوات الفرنسية نجحت فى صباح اليوم التالى فى صد حشود كثيرة من الأهالى كانوا فى طريقهم إلى القاهرة، فعزلت الثوار. وبدأت الدوائر تدور على الثوار، وهوت دعائم مسجد كان الثوار قد احتلوه.

وسعى رجال الديوان إلى مقابلة بونابرت، فأنحى عليهم باللائمة، وحدد شرط وقف القتال وأن يلقى الثوار أسلحتهم، فاتجهوا إلى الثوار، لكنهم لم يسمحوا لهم بمجرد عبور المتاريس!.

وأمر نابليون بقصف الجامع الأزهر وقتل الثوار واحتلال الجامع بالجنود، فحوصر الجامع وقصف بالنيران الثقيلة، وأحدثت المدفعية ثقوبًا فى جدرانه، حتى أوشك على التداعى، ولم يعد يرى إلا مبان محترقة، ودور منهارة، ودفنت عائلات بأكملها تحت الأنقاض ونفدت الذخيرة من الثوار، وزاد عدد قتلاهم زيادة مفزعة، فطلبوا التسليم. وعندئذ تقدم الفرنسيون وأزالوا المتاريس، واقتحموا الجامع مشاة وركبانًا وقتلوا من بقى فيه من الثوار.

يقول الجبرتى: «ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر، وهم راكبون الخيول، بينهم المشاة كالوعول، وتفرقوا بصحنه ومقصوراته، وربطوا خيولهم بقبلته، وعاثوا بالأروقة والحارات، وكسروا القناديل والسهارات، وهشموا خزائن الطلبة، والمجاورين والمكتبة، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأوانى، والقصاع والودائع، والمخبآت بالدواليب، والخزانات، ودشتوا الكتب والمصاحف،

وعلى الأرض طرحوها، وبأرجلهم ونعالهم داسوها، وأحدثوا فيه وتغوطوا، وبالوا وتمخطوا، وشربوا الشراب، وكسروا أوانيه، وكسروها بصحنه ونواحيه، وكل من صادفوه عروه، ومن ثيابه أخرجوه..!!

وكان ذلك فى ليلة الثلاثاء ٢٢ – ٢٣ أكتوبر سنة ١٧٩٨م.

ويلاحظ أن نابليون لم يشر إلى هذه الفظائع فى تقريره الذى رفع إلى حكومة الديركتوار، كما أنه أصدر أمرًا يوم ٢٣ أكتوبر بهدم الجامع فى أثناء الليل، وذلك بتحطيم بعض أعمدته إن أمكن، ولعله تراجع عن أمره بعد أن هدأت ثائرته.

ثم استقبل بونابرت أعضاء الديوان، وخطبهم خطبة طويلة، قرعهم فيها، لأن موقفهم اتسم بالضعف، لكنه أعلن العفو عن سكان القاهرة، ثم قال إن النبى كان يمقت نكران الجميل وإثارة الفتن مقتًا شديدًا، وأكد أنه لا يريد أن يمر يوم واحد دون أن تؤدى فيه الصلاة بالمساجد، وطلب إليهم أن ينظفوا الجامع الأزهر بعد أن جرت فيه الدماء أنهارًا، وقال إن ما حدث كان بالكتاب مسطورًا! وطلب إليهم أسماء المتعممين الذين أثاروا الفتنة، لكن أحدًا لم يجبه. واستجاب لالتماس المشايخ بإخراج الجنود من الأزهر استجابة فورية، واستبقى قوة للطوارئ والمحافظة على الأمن قوامها سبعون جنديًا.

وأذاع العلماء على سكان العاصمة بيانًا استهلوه بهذه العبارة: «نصيحة من كافة علماء الإسلام بمصر المحروسة»، وقرروا فيه أن الفتنة قد انحسرت وسكنت لأن بونابرت «رجل كامل العقل، عنده رحمة وشفقة على المسلمين، ومحبة إلى الفقراء والمساكين، ولولاه لكانت العسكر أحرقت جميع المدينة، ونهبت جميع الأموال، وقتلوا كامل أهل مصر». ويقول المؤرخ عبد الرحمن

الرافعى عن هذه البيانات إن الشيخ المهدى سكرتير الديوان كان يتولى تدبير سجعها وترصيعها بالآيات والأحاديث والحكم، كما ورد فى المراجع الفرنسية أن الشيخ المهدى كان يتولى صياغة المنشورات التى يريد نابليون أن يذيعها على لسان الديوان. ولعل هذا هو السبب الذى جعل نابليون يمتدح المهدى، ويقول عنه فى مذكراته: «إنه أذكى علماء الأزهر، وأفصحهم لسانًا، وأكثرهم علمًا، وأصغرهم سنًا».

واستمر الفرنسيون فى اقتحام البيوت بحجة البحث عن الأسلحة، فينهبونها، ويتعرضون للمارة ويصادرون ما يجدون من مال، ويقتلون من يبدى أية مقاومة، واضطر سكان حى الأزهر والمناطق المجاورة إلى مغادرة بيوتهم. وأصدر نابليون أمرا فى ٢٣ أكتوبر بقطع رءوس جميع المعتقلين الذين قبض عليهم وبحوزتهم أسلحة، وأن تلقى جثثهم بدون الرءوس فى النيل ويقرر فى مذكراته أنهم ألقوا القبض على ثمانين شخصًا من مائة هم أعضاء مجلس الثورة. وألقى الفرنسيون القبض على خمسة من علماء الأزهر واعتقلوهم فى دار البكرى، ثم جاءت قوة من الجنود، وطلبت الشيوخ بحجة أن بونابرت يريد الحديث إليهم، وذهبوا بهم إلى دار حاكم القاهرة العسكرى، ثم عروهم من ثيابهم، ثم قتلوهم بالبنادق!! وكان أعضاء الديوان يترددون على بونابرت للإفراج عن المشايخ، وهو يروغ منهم، ويستمهلهم، حتى تكشفت الحقيقة! ويقول الشيخ عبد الله الشرقاوى إن الفرنسيين قتلوا من علماء الأزهر نحوًا من ثلاثة عشر عالمًا، وترجم الجبرتى لخمسة منهم، وكانوا جميعًا قممًا علمية رفيعة.

وكان نابليون حريصا على التودد إلى الشيخ السادات، وكان يكن له تقديرًا وإجلالًا عميقين، وقد أصدر أمرًا بتشكيل لجنة برياسة الشيخ السادات

وعضوية قنصل النمسا العام وأحد جنرالات فرنسا، للنظر فى الظلامات التى يتقدم بها الأفراد فى مصادرة ممتلكاتهم وأموالهم، ورفض الشيخ عضوية اللجنة. كذلك أصدر نابليون أمرًا إلى مدير الشئون المالية بالجيش يوصيه خيرًا بالشيخ، ويطلب إليه الإبقاء على جميع امتيازاته، ومنها القرى الداخلة فى التزامه، والأراضى الزراعية، والمرتبات المقررة له من قبل الديوان، وعلى الرغم من كل هذا، لبث الشيخ على مبدئه فرأس لجنة الثورة فى أكتوبر ١٧٩٨.

ولما تم إخماد الثورة، واستجوب الشيخ نفى أنه حرض عليها، وقال إنه كان ملازماً فراش المرض، ولم يصدقه نابليون، وأزمع على معاقبته، لكنه عدل عن ذلك لعلمه أن عواقب عقابه الوخيمة أشد من نفعه، كما جاء فى محاورته مع كليبر، الذى تساءل لماذا لا يعدم الشيخ؟!

لكن الأمور ما لبثت أن تأزمت مرة أخرى بين نابليون وبين الشيخ، حين أمر نابليون باعتقال ابن القاضى العثمانى الذى غادر مصر مع وكيل الباشا، واعترض الشيخ على أساس أنه «لا تزر وازرة وزر أخرى»، وأن هذا سيكذب الزعم بأن الفرنسيس أصدقاء العثمانيين، ويسىء إلى صورتهم فى أذهان المصريين. وغضب نابليون غضبًا شديدًا، وأمر بإحضار الشيخ وأنبه، واحتجزه إلى ساعة متأخرة من الليل إلى أن تدخل الشيخ المهدى، والمندوب الفرنسى بديوان القاهرة. وثابر الشيخ على موقفه من الاحتلال الفرنسى، وكان من زعماء ثورة القاهرة الثانية.

وتطورت الأمور فى فرنسا، فكان لزامًا على نابليون أن يعود إليها، فتسلل فى ٢٢ أغسطس ١٧٩٩ من بقعة مهجورة على شاطئ سيدى بشر خوف الوقوع فى قبضة الإنجليز. وترك رسالة ضافية إلى كليبر الذى عينه

قائدًا للحملة جاء فيها: «..وإذا حصلتم على ثقة كبار مشايخ القاهرة كسبتم الـرأى العام فى مصر كلها، ومن بين الزعمـاء الذين يمكن أن يتخذهم هذا الشـعب قادة له، ليس هناك من هم أقل خطرًا من المشـايخ، الذين هم قوم هيابون، لا يعرفون القتال، ولكنهم شأنهم فى ذلك شأن القسيسين. يوحون بالتعصـب، دون أن يكونوا هم أنفسـهم متعصبين». وفـى ذات اليوم وجه رسالة من الإسكندرية إلى أعضاء ديوان القاهرة استهلها بـ «إلى ديوان القاهرة المختار من أكثر الناس اسـتنارة. وأكثرهم تعقلا»، وأوضح لهم أسباب سفره كمـا يريد هو، وقرر أنه تـرك القيادة للجنرال كليبر، «وهو رجل ذو صفات ممتازة، وقد أوصيته أن يحفظ للعلماء ما كنت أحفظه لهم من المحبة والود، فبذلوا ما فى وسـعكم ليثق به الشـعب المصرى ثقته بى، ولدى عودتى بعد شـهرين أو ثلاثة أكون راضيًا عن الشـعب المصرى، ولا أحمل للمشايخ إلا المديح وحسن الجزاء».

لكن كليبر لم يكن هو الاختيار الأوفق، كان عسكريًا صارمًا، لكن دون أن يحظى بأى قدر من الدبلوماسية، وكان مغرورًا، ميالًا إلى البطش والتنكيل، بل إلى إهانة العلماء. وعندما ذهب منهم وفد للسلام عليه بمناسبة تقلده القيادة، أرجأهـم لليوم التالى، فلما أن اسـتقبلهم لم يبدلهـم أى نوع من الترحيب أو البشاشـة، نقيض نابليون ذى الوجه الطلق البشـوش، الذى كان يتبسط مع جلسـائه، ويضحك معهم. وكان كليبر شـغوفًا بالمظاهـر الخارجية من أبهة وجـبروت، كآية من آيات التكريم والإجـلال. وكان كثيرًا ما يخرج ممتطيًا صهوة جواده فى موكب حافل، به نحو خمسمائة من القواسة، يأمرون الناس بالوقوف على الأقدام عند مروره، وبه كذلك خيالة من الإفرنج، ويسعى معه الأغا والوالى و«فرط الرمان».

اندلعت ثورة القاهرة الثانية فى حى بولاق فى ١٦ شوال ١٢١٤هـ/ ٢٠ مارس ١٨٠٠م، وامتدت إلى سائر أطراف القاهرة على مدى ثلاثة وثلاثين يومًا، اشترك فيها مع المصريين الأمراء المماليك والعثمانيون. الذين عادوا إلى مصر بعد التوقيع على معاهدة العريش التى نصت على جلاء الفرنسيين عن مصر وانتصر الفرنسيون، لكن بعض العثمانيين والمماليك تسللوا إلى مصر، وحرضوا المصريين على الثورة، ولم تكن مساهمة الأزهر فيها كبيرة، وإن اشترك فيها السيد عمر مكرم، والشيخ محمد الجوهرى.

ولما أن تفاقمت الأمور باتساع نيران الثورة واستبسال المصريين طلب كليبر وفدًا من علماء الأزهر ليسفر بينه وبين الجماهير الثائرة، وحضر إليه الشيخ الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر، والشيخ محمد المهدى، وغيرهم، وعرض عليهم كليبر إنهاء الثورة مقابل «أمان واف شاف» يعطيه أهل القاهرة، بشرط أن يخرج ناصف باشا وجنده العثمانيون والمماليك. وقال كليبر: «إذا قبلت شروطنا اجتمعنا بكم وبهم (العثمانيين والمماليك) وعقدنا صلحًا، ولن نطالبكم بشىء، والذى قتل منا فهو بمن قتل منكم». ولم يقبل العثمانيون وزعماء الثوار بالشروط. وأرجع الجبرتى هذا الإخفاق إلى غلبة الجهلاء على العقلاء، وعلو صيحة الفتنة على صوت الحكمة والعقل.

وهنا أنذر كليبر العاصمة بالاستسلام، فلم يزدد الزعماء إلا إصرارًا على موقفهم، فأمر كليبر بالهجوم العام على سائر أنحاء القاهرة، والضرب بالمدفعية، وإشعال النيران فى البيوت والمتاجر والوكالات، ودفنت أسر تحت الأنقاض أو احترقت.

واستأنف علماء الأزهر مساعيهم بعد أن حاقت بالثوار الهوائل، وانتهت مفاوضات التسليم فى ٢٦ من ذى القعدة ١٢١٤هـ/ ٢١ إبريل ١٨٠٠م،

وتعهد العثمانيون والمماليك بالجلاء عن القاهرة فى أربعة أيام حاملين أسلحتهم خلا المدافع، وأن يواصلوا الجلاء حتى حدود سورية، وفى المقابل تعهد كليبر بالعفو التام عن جميع الثوار المصريين بشرط ألا يغادر أحد منهم مصر للحاق بالعثمانيين.

أقام كليبر عرضًا عسكريًا كما أقام الزينات ابتهاجاً بالانتصار، وأولم للمشايخ، وطلب إليهم أن يقابلوه. واستقبلهم استقبالا عاصفًا، واتهمهم بأنهم يفضلون العثمانيين والمماليك على الفرنسيين، وهددهم بالقتل وحرق بلدهم وسبى حريمهم وأولادهم، ودافعوا هم عن أنفسهم بأنهم نصحوا للثوار بالإخلاد إلى السكينة، وتوسطوا فى إبرام الاتفاق، وبأن الفرنسيين أذاعوا على المصريين معاهدة العريش، التى نصت على جلاء الفرنسيين، وأن البلاد والأموال صارت للعثمانيين. وأنهى كليبر المقابلة بقوله: إن الفرنسيين يصدقون الناس وعودهم، ولهذا فلن ينقضوا الأمان الذى أعطوه، لكنه يفرض ١٢ مليون فرنك غرامة حربية على أهل القاهرة!!! وخص علماء الأزهر وعلى رأسهم الشيخ السادات بنصيب كبير من هذه الغرامة. ومنع الشيوخ عن مغادرة المكان، وحيل بينهم وبين صلاة الجمعة، وكان العالم الذى لديه مدخرات يهب إلى ذويه لإحضار قيمة الغرامة، محاطًا بجند مدججى السلاح، أما غير القادر ماديًا فلبث معتقلا تمتهن كرامته.

أما الشيخ السادات فقد أضيفت إلى غرامته غرامة الشيخ العنانى الهارب!. وسيق الشيخ إلى معتقله بالقلعة، وكان هذا الشيخ الطاعن فى السن ينام على التراب، ويتوسد الحجارة، وأمر كليبر بضربه خمس عشرة مرة بالعصا فى الصباح، ومثلها فى المساء من كل يوم. وأحضر لهم تسعة آلاف ريال معاملة، ثم قوموا ما وجدوه من المصاغ والفضيات والفراوى والملابس وسوى ذلك بأبخس

الأثمان، وهو لا يترك إلى حريمه. وظلوا على ضربهم إياه، وطلبوا زوجته وابنه فلم يجدوهما، فأحضروا تابعه، وجعلوا يضربونه حتى عاين الموت، فدل على مكانهما، فقبضوا عليهما، وحبسوا زوجته معه، وظلوا يضربونه بحضرتها، وهى تبكى وتولول. ثم تشفع المشايخ الشرقاوى والفيومى والمهدى وغيرهم حتى نقلوها إلى بيت الشيخ الفيومى، وظل الشيخ على حاله.

وقد انتقد بونابرت الإسراف فى تعذيب الشيخ السادات وإهانته، وأنهم تناسوا أنه ينتمى إلى الأسرة الشريفة، وتغافلوا عن مركزه الممتاز، فكان لهذا صدى أليم فى نفوس الشعب عامة، والأزهر خاصة، وكان سببًا غير مباشر فى قتل كليبر.

واعتقل الشيخ السادات للمرة الرابعة فى أوائل مارس ١٨٠١ عقب وصول الحملة الإنجليزية على مصر بقيادة أدميرال لورد كايث، خوفًا من استغلاله للموقف وتأليب الجماهير. وتوفى ابنه وهو معتقل، فلم يفرج عنه، بل سمحوا له فقط بالاشتراك فى جنازته. ونقل الشيخ إلى مسجد سارية فى القلعة، فوجد الشيخ الشرقاوى شيخ الأزهر، ورئيس ديوان القاهرة، ومعه المشايخ المهدى والفيومى والصاوى معتقلين، ثم لحق بهم الشيخ الأمير!! ولبثوا فى المعتقل مائة يوم!!

وعندما اغتيل كليبر فى ١٤ يونيو ١٨٠٠ فتش الفرنسيون الأزهر، إذ ثبت من التحقيق أن سليمان الحلبى قاتل كليبر كان طالبًا بالأزهر ثلاث سنين، وسافر إلى موطنه غزة، ثم عاد ونزل بنفس رواق الشوام نحوًا من ثلاثين يوماً قبل قتله كليبر، وأنه أفضى بما صح عليه عزمه إلى أربعة من الطلاب. وحاول التحقيق أن يتصيد الأدلة والقرائن على معرفة الشيخين الشرقاوى والعريشى المسبقة بالجريمة، لكن دون جدوى. لكن الفرنسيين

باتـوا واثقين بأن الأزهر هو البيئة الصالحة لتدبـير المؤامرات والاغتيالات لهـم. مما حـدا بالجنرال مينو خليفة كليبر على إجراءات اسـتفزازية فى الجامـع مثل الحفر فيه بحجة البحث عن أسـلحة، والأمر بألا يبيت به أحـد من الغرباء، وإخراج الطلاب الشـوام والعثمانيين منه. ورأى الشـيخ الشـرقاوى أنه من الأفضل فى مثل هذه الظروف أن يغلق الجامع الأزهر، مما ترتب عليه إيقاف الدراسـة وتعطيل الصلاة، فذهب المشايخ الشرقاوى والمهدى والصاوى إلى مينو، وطلبوا السماح بإغلاق الجامع وأبانوا عن وجهة نظرهم، وكان هذا موافقًا لهوى الجنرال، فوافق. وأغلق كذلك جامع محمد بـك أبى الذهب المواجـه للجامع الأزهر، وأخرج من المدرسـة القائمة فيه الطلاب الأتراك. وظل الأزهر مغلقًا زهاء عام.

وفـى النهاية فإننا نقول إن أغلب علماء الأزهر المتعاونين مع الفرنسـيين كانـوا مضطرين إلى هذا التعـاون، وإن رغمت أنوفهم، فلم يكونوا يرون فيهم إلا مغتصبـين أجانب، ظاهرهم المسـيحية، وباطنهـم الإلحاد، زد على هذا طبائعهـم الإباحية. أما عن الديوان الذى لم يكن له أية سـلطة فعلية فكانوا يشعرون بالحرج من عضويته.

وكان الضباط الفرنسيون والجنود غير راضين عن سياسة نابليون المتسامحة مع الشـيخ السادات، ويصفون الشـيوخ بأنهم «أس البلاء»، وأنهم «عواجيز منافقـون» وآية ذلك أنهم لم يخبروا نابليون بمنشـورات السـلطان العثمانى وأحمد باشا الجزار، وإبراهيم بك قبيل ثورة القاهرة الأولى، كذلك ابتهاجهم بقتل قائد القوات الفرنسـية فى أبى قير حين هاجمت حملة عثمانية البلدة فـى ١٤ يوليـو ١٧٩٩، وأنهـم كانوا يطلبـون إلى الصدر الأعظـم أن يوضح للسلطان أنهم مضطرون إلى مداراة الفرنسيين، لكنهم معه قلبًا وقالبًا، وأرسل

بوسيلج الذى عينه نابليون لمراقبة المشايخ إليه فقال إن معظمهم خونة أو متعصبون. أما مينو فقال إنهم كانوا يتجاوزون اختصاصاتهم ويسيئون استغلال سلطاتهم، ويصطدمون كثيرًا برؤساء الشرطة من أجل إطلاق سراح مذنب مسلم، ويعمدون إلى تخفيض الضرائب المقررة على مشايخ البلاد. وفى كل مناسبة كانت تبدو فيهم روح تتسم بالعداء للفرنسيين. وفى الحق لقد قابل العلماء انتكاسة العثمانيين فى موقعة أبى قير البرية فى ٢٥ يوليو ١٧٩٩ بوجوم شديد. ووقف نابليون على حقيقة مشاعر العلماء، كما أوضحها له بوسيلج فى تقاريره. وواجههم بذلك عند حضورهم للسلام عليه، كما يقضى بذلك الواجب على أعضاء الديوان. وخص الشيخين المهدى- الذى كان يصانعهم!- والصاوى بقدر أوفر من قوارص الكلم! وقال لهم إنه كان يظن أن المصريين يفرحون لانتصاره، ويتألمون لهزيمته، ولكنه لمس عكس ذلك تمامًا! وإنه قدم لهم كل مظاهر الحب، وإنه أكد لهم مرارًا أنه يحب النبى لأنه بطل صنديد، قاد غزوات حربية ناجحة، «وسوف يأتى اليوم الذى تنبشون فيه الأرض بحثًا عن عظام الفرنسيين، وتسقونها بدموعكم».

بقيت نقطة أخيرة نود أن نشير إليها، وهى أن الحملة الفرنسية لم تكن شرًا محضًا ذلك أنها حملت إلى مصر قدرًا من العلم التجريبى والمخترعات والآلات المبنية عليه كالمطبعة، كان بالنسبة لعلمائنا شيئا عجبًا. صحيح أن العهد لم يكن قد بعد بنا كثيرًا عن الشيخ أحمد الدمنهورى الذى ألف فى الكيمياء والجيولوجيا والطب والهندسة، وأضرابه، لكن ما أتت به الحملة الفرنسية كان جديدًا. ويحدثنا الجبرتى واصفًا أجهزة العلوم الطبيعية وتجربها فيقول فى معمل الكيمياء: «ومن أغرب ما رأيته فى هذا المكان (يقصد بذلك المجمع العلمى بمنزل حسن كاشف) أن بعض المتقيدين لذلك

أخـذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة، فصب منها شيئًا فى كأس ثم صب عليها شيئًا من زجاجة أخرى، فعلا الماءان، وصعد منه دخان بلون.. حتى انقطع وجف ما فى الكأس، وصار حجرا أصفر، فغلبه على البرجات حجراً يابسًا أخذناه بأيدينا ونظرناه...».

***